

تاريخ القبول: 2020/11/06

تاريخ الإرسال: 2020/10/21

تاريخ النشر: 2022/03/17

شعر النُوريات والزَّهريات بين المشاركة والأندلسيين

- كشاجم وابن حمديس - أنموذجاً

The Poetry of Nouriyat and Al-Zahriyat between the Masharqa and the Andalusians Khasajem and Ibn Hamdes

ط.د. عبد الرحمان قاسم¹، أ.د. حياة معاش²

جامعة محمد خيضر - بسكرة - الجزائر Abd.gacem@univ-biskra.dz

جامعة محمد خيضر - بسكرة - (الجزائر)، hayet.maache@univ-biskra.dz

مخبر الأبحاث في اللغة والأدب الجزائري.

الملخص:

يمثل شعر النوريات والزهريات أهمية كبيرة في شحذ خيال الشعراء وتجسيد عاطفتهم، وقد نظموا على اختلاف مشاربهم من مشارق الأرض ومغاربها في هذا الباب المستحدث، والذي أصبح باباً من أبواب الشعر الوصفي، وبعد استقرار بعض الدواوين الشعرية وتتبّعها اخترنا شاعرين نحسبهما أجادا في هذا الباب كشاجم (ت360هـ)، والذي يمثل العصر العباسي، وابن حمديس (ت527هـ) الذي يمثل العصر الأندلسي، محاولة منا في الكشف عن السمات الفنية التي شكلها كل منهما للحضارتين من خلال إبداعهم الشعري .

الكلمات المفتاحية: شعر، النوريات، الزهريات، الأندلس، الإبداع، الخيال.

Abstract:

And flowerpots represents the importance of sharpening the imagination. The poets and the embodiment of their

emotions. They organized their different ways from the east and west of the earth in this modern door, which became a chapter, which is from the chapters of descriptive and remote poetry Extrapolate some poetic medicine and follow them we chose two poets that we consider as good in this section as Kechajem (he died 360 hedjri) that show Abbasid era and son of Iben Hamdis (he died 527 hijri) Andalusian era trying to detect the paintings by the two poets for those two civilizations through their poetic.

Keywords: Poetry, Nuriat, Andalusia, Creativity, Flowers, Imagination.

المؤلف المرسل: عبد الرحمان قاسم، الإيميل: ABD.GACEM@UNIV-BISKRA.DZ

مقدمة

لقد أثرت الطبيعة في الشعر العربي بشكل بارز وملفت للانتباه بجميع عناصرها الحية والصامتة واتخذ الشعر منها مادته وموضوعاته، وسنقصر عنايتنا على التوريات والزهريات باعتبارهما شكلا من أشكال الطبيعة ومظهرها من مظاهر الحضارة في العصرين العباسي والأندلسي، ولا يعد هذا الشعر بابا مستحدثا في الشعر العربي بل هو قديم قدم الأدب العربي نفسه منذ العصر الجاهلي والإسلامي مروراً بالعصر الأموي والعباسي والأندلسي وحتى العصر الحديث حيث دائما ما يعبر الشعراء عن ذواتهم ويبثون أحزانهم وأفراحهم إلى الطبيعة منذ أن بكى امرؤ القيس الشاعر الجاهلي على أطلاله فبيئة مصر والعراق في العصر العباسي وبيئة المغرب والأندلس كانتا كفيلتان بشحن خيالات الشعراء وتجسيد عواطفهم إزاء الطبيعة التي كست برديتها حتى باتوا عشاقا لها ولكل ما يصدر عنها بالإضافة إلى سبب آخر لا يقل أهمية عن البيئة، والذي أسهم في ظهوره وتطوره ألا وهو الحضارة والثراء والترف ساعد على اتصال الشعراء بالطبيعة لدرجة أنهم اعتنوا عناية فائقة بالحدائق

وتنظيمها فهاذين الأثرين كان لهما دور أساس في اكتساب ملكة الشعر وتقويتها من خلال الاندماج مع الطبيعة وعليه.

فنحن بصدد دراسة شاعرين مختلفين كل وببئته على سبيل الموازنة بينهما شاعر مشرقي ينتمي إلى العصر العباسي، وهو كشاحم وقد نظم في شعر النوريات وشاعر أندلسي وهو ابن حمديس وينتمي إلى عصر ملوك الطوائف، وكذلك قد أبدع في وصف الزهريات والنوريات، ولم يكن اختيارنا للشاعرين عشوائيا من قبيل الصدفة؛ بل كان وفق دراسة تبين منها أنه يوجد بينهما قواسم مشتركة وتجمعهما نقاط تقاطع وتشابه تجعلهما مطية للموازنة، بينهما من ناحية البيئة والعصر باعتبارهما حضارتين ممتدتين عبر التاريخ وكذا الكشف عن اللوحات التي رسمتها أنامل الشاعرين لتلك الحضارتين من خلال إبداعهما الشعري .

1- مفهوم شعر النوريات والزهريات:

لغة: النور النورة، جميعا: الزهر وقيل: النور الأبيض، والزهر الأصفر، وذلك أنه يبيض ثم يصفر، وجمع النور أنوار والثوار بالضم والتشديد: كالنور واحدته نورة، وقد نور الشجر والنبات، وقد سمى خندف بن زياد إدراك الزرع تنويرا فقال: "سامي طعام الحي حتى نوراً"، وجمعه عدئي بن زيد: فقال¹:

وذي تناوير ممعون له صبح يغدوا أوابد قد أفلينا أنهارا.

الزهرة: مادة (ز.ه.ر) نور كل نبات، والجمع زَهْرٌ وخص بعضهم به، وزهر النبات، نوره وكذلك الزهرة بالتحريك قال: والزهرة البياض عن يعقوب يقال أزهر بين الزهرة وهو بياض عتق، وقد فرق ابن الأعرابي بين النور والزهرة فقال: النور الأبيض والزهرة الأصفر وذلك لأنه يبيض ثم يصفر والجمع أزهار وأزاهير جمع الجمع، وقد أزهر الشجر والنبات².

2- العصر العباسي:

يعد العصر العباسي والذي امتد لأكثر من خمسة قرون أي من عام 132هـ إلى 656هـ، هو أزهى العصور الإسلامية التي شهدت توهجاً في كل مناحي الحياة وسمواً في شتى نواحي الحضارة والمدنية، وخاصة العصرين الثانيين عامي 232 إلى عام 334هـ، فقد ساعد استقرار الدولة وثراؤها ورحابة فكر العديد من حكامها في تحقيق الإزدهار في العلوم والآداب والفلسفة وغيرها، فظهر حسن بن الهيثم والرازي والخوارزمي وجابر بن حيان والكندي والبيروني والفارابي وابن سينا وعشرات غيرهم.

وكان شعر الطبيعة واحداً من هذه الجوانب التي شهدت ازدهاراً ملحوظاً في ذلك العصر، فبعد أن كانت الطبيعة لدى الشعراء القدماء تنحصر في وصف القفار والناقة والفرس والديار، ومع تطور الحياة وإزدهارها صاروا يصفون الحيوانات الأليفة والأزهار والبساتين، وهذا مطيع بن إياس، يقول في بدايات العصر العباسي، مخاطباً "نخلتي حلوان"³:

أُسعداني يا نخلتي حلوان

وأبكي لي من ريب هذا الزمان

شهد شعر الطبيعة تطوراً بارزاً، من الوصف التقليدي الذي يصور الجوانب القاسية من الطبيعة أو الجانب الوحشي، إلى الوصف الوجداني، الذي يصور جميع نواحيها، وبخاصة الجانب الرقيق الباسم الهادئ الفوّاح بالعطر والشذى، وأصبح شعر الطبيعة فناً رئيسياً من فنون الشعر العربي.

وكان معظم وصف شعراء العصر العباسي يرد في مقدمات المدائح، وأضاف بعض هؤلاء الشعراء الأوصاف المادية للطبيعة ومنحوها حساً وذوقاً كبيرين؛ واستغرقوا في نشوة جمالها، وبادلوها عاطفةً بحباً⁴، من هؤلاء: أبي تمام والبحري وابن المعتز والصنوبري وابن الرومي، الذي كان يرى الدنيا في فصل الربيع تتبرج له ولكل ناظر، وكما عند بشار بن برد الذي وصف البحر والسفينة،

وابن المعتز الذي كان يصف الطبيعة وصفا دقيقا يشبه آلة التصوير التي تلتقط كل التفاصيل، مثل وصفه لزهرة النرجس⁵ فيقول:

إن عيون النرجس الغضّ بيننا
مَـداهن درّ بينهن عقيق
إذا بلّهن القطر خلت دموعه

بكاء عيون كحلّهن خلّوق
أدى اتساع مناحي الحياة في العصر العباسي إلى اتساع الشعر الوصفي في الأدب؛ فتكاثرت الموضوعات التي تناولها الشعراء فضلاً عن الأغراض الشعرية التي نظموا فيها، ما أدى إلى ازدهار فن وصف الطبيعة والزهرات التي تمثل شكلاً من أشكالها الفنية، وكانت الصياغة الفنية تعتمد اعتماداً كلياً على المحسنات البديعية واللفظية، وانطوت على التشبيهات الطريفة والألوان البهيجة، وتوسعوا في وصف مشاهد الطبيعة المختلفة، وبالغوا في وصف الرياض والأزهار والثمار، لذا كان فصل الربيع أكثر الفصول حظوة عند الشعراء، فوصف الكثير منهم الربيع وأزهاره، من ذلك قول البحتري في ميمته⁶:

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكاً
من الحسن حتى كاد أن يتكلما
وقد نبه النيروز في غسق الدجى
أوائل ورد كنّ بالأمس نوماً
يفتقه بررد الندى فكأنه

يبئ حديثاً كان قبل مكثماً
وكان للأزهار والورود حضور كبير في شعر العصر العباسي، فاستخدموه في الغزل والمدح وتغنوا به، ومن أجملها النرجس، الذي قال ابن الرومي في

وصفه: "النجس شبه الأعين والمضاحك، والورد يشبه الخدود، والأعين والمضاحك أشرف من الخدود، وشبيهه الأشرف أشرف من شبيهه الأدنى"⁷.

3- العصر الأندلسي:

يتميز تاريخ الأندلس، أو العهد الأندلسي إن جازت التسمية، بأنه زامن العصر العباسي بدرجة كبيرة، إذ فُتِحَت الأندلس-على يد طارق بن زياد- عام 92هـ، أي قبل بدء الدولة العباسية بأقل من أربعين عامًا، واستمرت أكثر من سبعة قرون حتى سقوطها عام 897 هـ، قبيل سقوط الدولة العباسية بنحو ثماني سنوات فقط.

كانت الطبيعة الأندلسية زاخرة فائقة، فهي شبه جزيرة يطوقها البحر من ثلاث جهات، تملؤها الجداول والأنهار، وتحفها الثمار والأشجار، والحدائق المبهجة، وتتخللها الأنهار التي تزخر على ضفافها الأشجار المورقة، وأكثر بقاعها حدائق ذات أثمار، الأمر الذي ساعد في ازدهار الحضارة الأندلسية التي تجلت في القصور العالية والمساجد المزخرفة، وكذلك مجالس العلم الحافلة بالعلماء والطلاب، ما أدى إلى وجود حركة علمية ممتازة، تركت العديد من الكتب القيمة في العديد من العلوم الإنسانية والتجريبية.

ومع تلك الحضارة التي أنتجتها هذه الطبيعة الساحرة، كان من البديهي أن يكون وصف هذه الطبيعة موضوعاً رئيساً في الشعر الأندلسي؛ إذ أن أدب كل أمة يكون مرآة عاكسة لتلك الأمة، فقد نقل الشاعر الجاهلي من خلال وصف الصحراء أو جوانب منها جماليات البيئة المعيشة، وكذلك أن الشاعر الإسلامي والأموي والعباسي، كل منهم حمل في شعره وصفاً لبيئته، فليس غريباً إذن على الشعر الأندلسي أن يكون حاملاً لطبيعته وما تزخر فيها من جمال وألوان، يقول الشاعر الأندلسي ابن خفاجة⁸:

يَا أَهْلَ أَنْدَلُسٍ لِلَّهِ دَرْكُكُمْ	مَاءٌ وَظِلٌّ وَأَنْهَارٌ وَأَشْجَارُ
مَا جَاءَ الْخُلْدَ إِلَّا فِي دِيَارِكُمْ	وَلَوْ تَخَيَّرْتُ هَذَا كُنْتُ أختَارُ
لَا تَخْشَوْا بَعْدَ ذَا أَنْ تَدْخُلُوا سَقَرًا	فَلَيْسَ تُدْخَلُ بَعْدَ الْجَنَّةِ النَّارُ

4- تأثر شعر الطبيعة الأندلسي بالعباسيين:

إن الباحث في شعر الطبيعة عند الأندلسيين يدرك الصلة الوثيقة بين شعر الطبيعة عند العباسيين والأندلسيين، فشعراء الأندلس لم يحاولوا الثورة على الأوضاع والأنماط العباسية؛ بل كانوا في غالب الأمر يقلدون العباسيين ويحاكونهم، دون أن يفكر أي منهم في الخروج على هذا التقليد وتلك المحاكاة.

لم يحدث شعراء الأندلس مذهباً فنياً جديداً في الشعر العربي؛ بل جمدوا غالباً عند التقليد والصَّوغ على نماذج المشاركة، ورغم الترف الذي عاشت فيه الأندلس، والذي أحدث عندها اهتماماً بشعر الطبيعة، كما أحدث عندها نهضة واسعة في الغناء وما يطوي من الموشحات والأزجال؛ فإن هذا اقتصر على الشكل، مثل تخلصهم من التقيد بالوزن أو القافية الواحدة، وهو التجديد الشكلي الذي اضطرتهم إليه ظروف الغناء، دون أن يتجاوزوا ذلك إلى التجديد في الصياغة العقلية والشعورية، فكل ما لهم في شعر الطبيعة إنما هو الكثرة، أما أفكارهم وطرقهم في الوصف ومناهجهم فكل ذلك يستعيرونه من المشرق، متأثرين بالشعراء العباسيين مثل أبي تمام وابن الرومي⁹.

ونتيجة لتأثر شعر النوريات والزهريات بشعر الطبيعة في المشرق من خلال اقتفاء الشعراء الأندلسيين أثر الشعراء المشاركة فما لبثوا أن أخذوا قصب السبق والتفوق عليهم في هذا الفن وأتوا بالروائع الخالدة وكل ذلك بدافع من طبيعة الأندلس وحياة اللهو ومجالس الطرب. "وإذا أقرنا أن شعر النوريات والزهريات كان متأثراً بشعر الطبيعة في المشرق ومعارضاً له وأنهما كانا يخرجان من رحم واحدة فلا بد أن نحسب عامل البيئة وهو كان في صالح الشاعر الأندلسي بالإضافة إلى سعة الإنتاج وكثرته، وآراء النقاد تدل على أن تقليد الأندلسي للمشاركة كان إظهاراً لتفوقه وقدرته لا تقليداً أعمى"¹⁰، ويقول مصطفى الشكعة في هذا الصدد: "فليس على المتأخر من بأس في أخذه من المتقدم طالما كان يسعى إلى مجال التطوير في الصورة ويهدف إلى التجديد في المعنى"¹¹.

ليتضح أن نطاق التقليد والمحاكاة لم يكن حكرًا على التقليد الأعْمى؛ بل مثل فترة من النماء الخصب والكتابة المتميزة إذ ارتقى بهذا النوع من الكتابة إلى درجات عالية من الإبداع الفني وأسهم في إرساء قواعد وضوابط فنية تميزه عن غيره من الفنون الشعرية الأخرى كملح أسلوبه له ميزاته وخصائصه.

5- شعر الطبيعة بين كشاجم العباسي وابن حمديس الأندلسي:

أولاً- كشاجم:

هو أبو الفتح محمد بن محمود بن الحسين بن السندي بن شاهك الرملي، يُعرف "كشاجم" (بضم الكاف) من الرملة بفلسطين، وأصله فارسي، له ديوان شعر ومصنفات أخرى كأدب النديم والمصايد والمطارِد والرسائل وخصائص الطرب وغيرها. ولقب "كشاجم" منحوت من علوم كان يتقنها: الكاف للكتابة، والشين للشعر، والألف للإنشاء، والجيم للجدل، والميم للمنطق.

وقيل: لأنه كان كاتباً شاعراً أديباً جميلاً مغنياً في مجالس حلب التي تكثر فيها مجالس الشعر والغناء والأدب، وتعلم الطب فزید في لقبه طاء، فقل طكشاجم ولم يشتهر به وبقي كشاجم وعرف بين شعراء حلب بهذا اللقب.

غير معلوم تاريخ مولده على وجه التحديد، إلا أن وفاته مثبتة عام 360هـ (970م)، فكانت حياته في صدر الدولة العباسية وبين أركانها، حيث تنقل بين دمشق وحلب والقدس وبغداد وحمص، وزار مصر أكثر من مرة قبل أن يستقر في حلب بسوريا، ليكون من شعراء بلاط سيف الدولة الحمداني ومن قبله أبوه عبد الله¹².

- النُوريات والزَّهريات عند كشاجم:

عبر كشاجم في شعره عن جمال الأزهار والورود ورائحتها العطرة ومناظرها الجميلة وهي مزينة بالروزيات، واتخذها رمزاً لأغراض التشبيه والوصف في شعر الغزل، فشبّه عيون محبوبته بالنرجس، وشبه وجنتيها بالبنفسج وشقائق النعمان والورد، وشبه الأقاحي بثغرها الناصع¹³، "ووصف كشاجم الأزهار في صور جمالية

مجتمعة ومنفردة من شدة ولعه بأشكالها وألوانها وروائحها ولعاً يشبه ولع ابن المعتز بها¹⁴.

أبدع كشاجم في وصف أنواع الأزهار المتعددة التي تكسو الأرض كالأقحوان والنجرس والبحار و... غيرها، وكان يستخدم في وصفه أسلوباً سهلاً ولغة بسيطة وتشبيهات قريبة توحى بجمال وتعدد الألوان والعطور، فقال¹⁵:

وَالْأَرْضُ تُكْسَى بِزَهْرِ الرَّ	يَاضٍ وَشَيْئاً مُعَمَّذُ
كَأَنَّ خُرْدَ عَيْنٍ	بَهَا يُضْاحِكُنْ خُرْدُ
وَأَبْيَضُ اللَّوْنِ ضَاحٍ	وَحَالِكُ اللَّوْنِ أَسْوَدُ
وَحُمْرَةٌ مِنْ عَفِيقٍ	وَحُضْرَةٌ مِنْ زَبَرْجَدُ
وَأَقْحَوَانُ كَمَا ارْقَضُ	لَوْلُؤُ وَتَبَّ دَدُ
وَالنَّجْرَسُ الْعَضُّ يَرْئُو	إِلَى الْبَهَارِ الْمُنْضَدُ
كَمَا أَشَارَ مُحِبُّ	إِلَى حَبِيبٍ بِمَوْعِدُ ¹⁶

وصف الشاعر الأزهار التي تكسو الروضيات بألوانها المختلفة، فصور اللون الأبيض بالإشراق والأسود بالخالك، والأحمر بالعقيق والأخضر بالزبرجد، وشبه زهر الأقحوان باللؤلؤ المنثور، وزهر النجرس بإنسان يتطلع إلى البهار كأنه يشير إلى محبوبته بموعد.

وفي أبيات أخرى نجد كشاجم يصف روضة قد ملأها المطر وأحدث بها تغييرات عديدة، فيقول¹⁷:

وَرَوْضٍ عَنِ صَنِيعِ الْغَيْثِ رَاضٍ	كَمَا رَضِيَ الصَّدِيقُ عَنِ الصَّدِيقِ
إِذَا مَا الْقَطَرُ أَسْعَدَهُ صَبُوحًا	أَتَمَّ لَهُ الصَّنِيعَةَ فِي الْغُبُوقِ
يُعِيرُ الرِّيحَ بِالنَّفَقَاتِ رِيحًا	كَأَنَّ ثَرَاهُ مِنْ مِسْكَ سَحِيقِ
كَأَنَّ الطَّلَّ مُنْتَثِرًا عَلَيْهِ	بَقَايَا الدَّمْعِ فِي خَدِّ الْمَشُوقِ

كَأَنَّ غُصُونَهُ سُقِيتَ رَحِيْقًا فَمَاسَتْ مَيسَ شُرَابِ الرَّحِيقِ
نرى الشاعر هنا وقد أعجبه منظر الروضيات، وهي ممتلئة بالأمطار، وعبر
عن ذلك بالتشبيهات، فشبه الروضيات بالإنسان الراضي عما فعلته الأمطار به،
فنتيجة لنزول المطر أصبح الرياض معطرًا بعبير الأزهار، ورائحة تراهبه كالمسك
الجميل، كما شبه المطر المتبقي على أغصان الأشجار ببقايا الدمع على الخدود،
وشبه الغصون بالإنسان الذي ارتوى خمراً فتمايل من أثر الخمر، بعد ذلك ينتقل إلى
استكمال تشبيهاته مستخدماً صفات الأزهار فيقول¹⁸:

كَأَنَّ شَقَائِقَ النُّعْمَانِ فِيهِ مُحَضَّرَةٌ شَقَائِقُ مِنَ عَقِيقِ
كَأَنَّ النَّرْجِسُ الْبَرِّيُّ فِيهِ مُدَاهَنٌ مِنَ لَجِينِ اللَّخْلُوقِ
يُذَكِّرُنِي بِنَفْسَاجُ بَقَايَا صَنِيعِ اللَّطَمِ فِي الْخَدِّ الرَّقِيقِ
شبه زهر شقائق النعمان بكؤوس العقيق، كما شبه زهر النرجس بمداهن
الفضة الفواحة بأطيب العطور، واختتم بزهر البنفسج الذي يذكره بما يفعله اللطم من
احمرار وجمال في الخدود الرقيقة¹⁹.

ويعود كشاجم ليصف في أبيات أخرى منظر الرياض بعد نزول المطر عليها
أيضاً، مشبهاً أزهار السوسن والورد بخدود الفتيات العذارى، والفضة والنرجس بالعيون
الناعسات، فقال²⁰:

فالأرض تجلى بالنبات الغض في حليها المحمر والمبيض
من سوسن أحوى وورد غض مثل الخدود نقشت بالغض
وأقحوان كاللجين المحض ونرجس ذاكي النسيم بض
مثل العيون رنقت للغضض ترنو ويعشاها الكرى فتغضى

ثانيا - ابن حمديس:

هو أبو محمد عبد الجبار بن أبي بكر الصقلي، معروف بـ"ابن حمديس الصقلي"، ولد عام 447 هـ / 1055م، شاعر عربي ولد ونشأ في صقلية، ثم تركها ورحل إلى الأندلس سنة 471 هـ، وأقام فيها لفترة ثم انتقل إلى المغرب الأوسط وإفريقية حتى توفي في جزيرة ميوقفة سنة 527 هـ / 1133م²¹.

وقد أبدع ابن حمديس في وصف النبات والأزهار والرياض، فلم يكتفِ بوصفها وصفاً عارضاً أو عابراً، بل إنه جعل من الطبيعة فتاة حسناء يغازلها ويجلي سحرها ومفانيتها، متغزلاً فيها غزلاً حسيّاً متناسياً الزهرة التي يصفها²².

وقد تغنى ابن حمديس بالأزهار بشعر جميل رقيق ضمنه أساليب تعبير مبتكرة فياضة الخيال، تُظهر دقة في الوصف وقدرة فائقة على التجديد والابتكار، كما تظهر باعاً طويلاً في الفن الشعري؛ فقد صدر الشاعر في زهرياته عن شاعرية أصيلة عبر فيها عن تعاطفه مع الأزهار، مسجلاً صورة صادقة لانعكاسات هذا التعاطف في نفسه وقلبه²³.

ورغم تقليد ابن حمديس للقدماء أحياناً في استلهم أسلوبهم وطريقتهم بل ألفاظهم أيضاً، فإن ذلك لم يحد من قدرته على خلق صور جديدة مبتكرة، وذلك لما كان يمتلكه من قوة شخصية ساعدته في رسم صور كلية في عالم النبات والأزهار والطبيعة بأسلوب لم يسبقه به أحد من القدماء من حيث الدقة والوضوح والغاية من وراء رسمها²⁴.

- النوريات والزهريات عند ابن حمديس:

والدارس لابن حمديس يجد الزهريات منثورة في ثنايا ديوانه، سواء مفردة أو مضمنة في أغراض أخرى كوصف الخمر أو حتى الحريات، يقول في بعض أبياته التي يهجو فيها باقة ورد²⁵:

وَبَاقَةٌ مُسْتَحْسِنٌ نَوْرُهَا وَقَدْ خَلَّتْ فِي الشَّمْرِ مِنْ كُلِّ طَيْبٍ

كَمَعَشَرٍ رَاقَتْكَ أَثْوَابُهُمْ وَلَيْسَ فِي جُمْلَتِهِمْ مِنْ أَدِيبٍ
ورغم أن بعضهم أخذ على الشاعر هجاءه للباقة، إذ إن الأزهار "تبقى بجمالها
فانتة حتى لو خلت من الأريج وتجردت من العبير"²⁶، فإن الشاعر قد يكون لديه
بعض العذر في ذلك، فربما دفعه ضيق العيش وحزنه وغريته عن وطنه، للتبرم من
الحياة حتى وصل به الأمر إلى أن يضيق بمظاهر الجمال فيها، أو لعله أراد أن
يوصل حكمة للناس مفادها أن الاهتمام بجوهر الأمور أفضل من أخذها بظاهرها
من جهة، ومن جهة أخرى فهو يرى أن جمال الثياب لن يستمر ما في النفس والجسد
من عيوب. ونراه في صورة أخرى مبتكرة يرثي فيها باقة ورد قد ذبلت فيقول²⁷:

يَا بَاقَةً فِي يَمِينِي لِلرَّدَى ذَبِلْتُ أَذَابَ قَلْبِي عَلَيْكَ الْحُزْنَ وَالْأَسْفُ
أَلَمْ تَكُونِي لَتَاجِ الْحُسْنِ جَوْهَرَةً لَمَّا غَرِقْتَ، فَهَلَّا صَانَاكِ الصَّدَفُ
فالشاعر في هذه الأبيات يرثي تلك الباقة التي أصابها الذبول فيحترق حزناً وأسى
عليها بعد أن غرقت في بركة، ويشبهاها بالجوهرة، مستغلاً كون الجواهر من أصداف
البحار، غير أن هذه الأصداف لم تحمها، وربما قصد الشاعر أن يشبه أوراق
الأزهار بالأصداف، وهو أقرب إلى التصور من التخريج الأول²⁸.

وهذه أيضاً نماذج مكتفة سريعة لما قدمه ابن حمديس الأندلسي في شعر
الزهريات والنوريات:

- الزهر:

هو نور كل نبات، والجمع زَهْرٌ وأزهار، وخص بعضهم به الأبيض، ويشبه
الشاعر يشبه صفات الممدوح بالزهر في الروض. ويقول في قصيدة يمدح فيها أحمد
بن عبد العزيز بن خراسان²⁹:

وَالصَّبْحُ يَلْقُطُ مِنْ جُمَانِ نَجْوَمِهِ مَا كَانَ فِي الْأَفَاقِ ذَا تَبْدِيدِ
زُهْرٌ خَبِتْ أَنْوَارُهَا فَكَأَنَّهَا سُرُجُ الْمَشَاكِ عَوَلَجَتْ بِخُمُودِ

كَأَزَاهِرِ النَّوَارِ تَقْطُفُهَا مَهَّاءٌ
مَنْ كُلِّ مَخْضَرِ الْبَقَاعِ مَجُودٌ
- الرِّيحَانُ:

يقول ابن حمديس مؤكداً أثر الريحان وقيمته في نفس الشاعر واستحضاره في
مجالس شربه كثيراً³⁰:

عَلَّلِ النَّفْسَ بِرِيحَانٍ وَرَاحٍ وَأَطْعُ سَاقِيَهَا وَاعْصِ اللِّوَّاحِ
وَأِدْرِ حَمْرَاءَ يَسْرِي لُطْفًا سَكْرُهَا مِنْ شِمَمِهَا فِي كُلِّ صَاحِ
فالشاعر يلجأ إلى الطبيعة كلما ضاقت به الحال فهذا هو ذا يتجه إليها في شربه
وليهوه

ويعلل نفسه بالريحان قبل أن يتجه إلى الخمر وشربه، فالشاعر يستحضر
الأزهار والورود والريحان ويرى أنها بعبقها وأريجها تكون سببا في تعلقه.

- السوسن:

ليس من نبات أرض العرب، وأنواعه كثيرة، فمنه الأبيض والأحمر، والأصفر
وغيره³¹، يقول ابن حمديس في قصيدة مدح³²:

يَا لَهَا مِنْ جَنَّةٍ رُمَائِهَا مَا دَرَتْ مَا لَمْسُهُ رَاحَةً جَانِ
يَا عَلِيلَ الْقَلْبِ كَمْ ذَا تَشْتَتِي سَوْسَنَ النَّ حَرِّ وَعُنَابَ الْبَنَانِ
- النرجس:

على الرغم من أن هذا النبات ليس عربي الأصل والنشأة إلا أن ابن حمديس
يذكره في ديوانه وكأنه يشير إلى غريته عن بلاده، يذكر النرجس بالتكثير والتعريف
فيقول³³:

وَلَيْلٍ هَوَتْ فِيهِ نُجُومٌ كَأَنَّهَا بَعَالِيلُ بَحْرِ مُضْمَرِ الْجَزْرِ فِي الْمَدِّ
كَأَنَّ الثَّرِيَّا فِيهِ بَاقَةٌ نَرْجَسٍ مِنْ الشَّرْقِ يُهْدِيهَا إِلَى مَغْرِبِ
- الْأَقْحَوَانُ:

الأقحوان، وهو أحد أنواع الزهر، جمعها أقاح وأقاحين. قال الأصمعي: "البابونج: الأقحوان، وهو القُرْاص، وهو نوعان أصفر وأبيض"، ويقول دُونش ابن تميم: "منه ما زهره أصفر، ومنه ما زهره أبيض وفي وسطه لمعه صفراء"، ويقول الرازي في "الحاوي": "الأقحوان الأبيض يدعى تفاح الأرض، والذي صحَّ فيه ما ذكره ديسقوريدس، قال: إنه بنات من جنس البقل المستأنق كلَّ عام³⁵.

ذكر ابن حمديس الأقحوان في الغزل في معظم مواقعه، منها قوله³⁶:

بَيْتٌ فِي ثَغْرِهَا بَرْدُ الشَّبَابِ كَمَا

بَاتَ النَّدَى مِنْ أَقَاحِي الرُّوضِ فِي زَهَرِ

ويقول³⁷:

تَمْشَى وَسُكَّرَ التِّيهِ فِي عَطْفِهَا يُمِيلُ مِنْهَا بِاعْتِدَالِ الْقَوَامِ

يَا مَنْ رَأَى فِي غُصْنِ رَوْضَةٍ يُسْمَعُ مِنْهَا لِلْأَقَاحِي كَلَامِ

- التَّفَاح

أما التفاح فقد ارتبط ذكره بالمرأة وشبهت حدودها لتوردها واحمرارها ونضارة وكأنها التفاح يقول الشاعر³⁸.

مَهْتَرَةٌ بِقَوَاتِلِ الثَّمَرِ التِّي مَهْمَاؤُهَا الرُّمَانُ وَالتَّفَاح

ويقول³⁹:

لَوْ شِئْتُ حَيِّتَ نَشَاوَى الْهَوَى مِنْ لَوْنِ خَدَيْكَ بِتَفَاحَتَيْكَ

- الرُّمَان

ذكره ابن حمديس للدلالة على نهدي المرأة في غزله، من ذلك قوله⁴⁰:

وَبِمُهْجَتِي عُزْبٌ كَأَنَّ قُدُودَهَا قُضِبَتْ تَقُومُ بِمِيلِهِنَّ رِيَاخُ

مَهْتَرَةٌ بِقَوَاتِلِ الثَّمَرِ التِّي أَسْمَاؤُهَا الرُّمَانُ وَالتَّفَاح

ويقول⁴¹:

وَجَنِّي لِي، فَإِنَّ قَلْبِي عَلِيلٌ ما اشتهى من جَنِّي رَمَانِ صَدْرِكَ
وأيضاً⁴²:

وردفك المُرْتَجُّ في غُصْنِهِ مَيَّاسٌ اهْتَزَّ بِرُؤْمَانَتَيْكَ

6- موازنة الزهريات في وصف المكان بين كشاجم وابن حمديس:

من الفقرات التي تشابهت في حياة الشاعرين أن كل منهما نزح من وطن إلى آخر غير أنه احتفظ لنفسه بكثير من الذكريات فيه خلدها بأبياته، فكان كشاجم قد ارتبط بمصر التي تكررت زيارته لها قبل أن يستقر في حلب، وكذلك فعل ابن حمديس مع صقلية التي ولد بها وعاش فيها سنوات حياته الأولى ثم نزح إلى الأندلس.

وفي الأبيات التالية نراها كيف وصف كل منهما مواطن ترحالهما، فيصف كشاجم مصر ويشبهاها بالجنة التي تشتمل على جميع أصناف الرياض والأزهار بأنواعها وألوانها وأشكالها المختلفة، فيما يصف ابن حمديس صقلية، ومن الطريف أن يستخدم الشاعران زهرة شقائق النعمان في تصويرهما⁴³:

أَمَّا تَرَى مِصْرَ كَيْفَ قَدْ جُمِعَتْ بِهَا صُنُوفُ الرِّيَاضِ فِي مَجْلِسٍ؟
السُّوسَنُ الغَضُّ والبَنْفِسُجُ والـ وَرُودٌ وَصَفْرُ البَهَارِ وَالنَّارِجِسُ
كَأَنَّهَا الجَنَّةُ الَّتِي جَمِعَتْ مَا تَشْتَهِيهِ العُيُونُ وَالْأَنْفُسُ
كَأَنَّمَا الأَرْضُ أُلْبِسَتْ حُلًّا مِنْ قَاحِرِ العَبْقَرِيِّ وَالسُّنْدُسُ
وَقَدْ أَحَاطَتْ بِهَا شَقَائِقُهَا كَأَنَّهَا مِنْ عَقَائِقِ أَكْوَسُ

وكذلك راح ابن حمديس يتذكر صقلية التي نشأ فيها وعاش بها صباه⁴⁴:

بَلَدٌ أَعَارَتْهُ الحَمَامَةُ طَوْقَهَا وَكَسَاهُ حُلَّةَ رِيشِهِ الطَّائِفُ
وَكَأَنَّ هَاتِيكَ الشَّقَائِقَ قَهْوَةً وَكَأَنَّ سَاحَاتِ الدِّيارِ كَوْوَسُ

بتأمل الأبيات التي أوردناها للشاعرين كشاجم وابن حمديس، نستطيع أن نلتقط أهم ما يوضح الفرق الأساسي بين شعر الطبيعة لدى كل من العباسيين والأندلسيين، هذا الفرق الذي ينحصر، كما أكدنا من قبل، في إسهاب الأندلسيين أكثر وكذلك "تخصصهم" في باب الزهريات والنوريات.

خاتمة:

بالرجوع إلى الأبيات نرى كيف كان كشاجم يجمع في قصيدته بين أنواع مختلفة من الزهر مكوناً منها صوراً بديعة متكاملة، إذ كان ورود هذه الأزهار في أغلب المواضع- للتشبيه، سواء شبه بها المحبوبة أو حتى الطبيعة ذاتها كالأرض التي بللها المطر.

أما ابن حمديس، وزملاؤه من شعراء الأندلس، فقد كان إنتاجهم غزيراً في هذا الباب؛ وكما أظهرت الأبيات كانت الأزهار لديهم هدفاً في حد ذاته، إذ كانت هي موضوع الأبيات وليست مجرد صور يشبه بها الشاعر عناصر موضوعه.

ومع ذلك يجدر بنا أن نشير إلى أن هذه الملاحظة ليست مستطردة في جميع شعر العباسيين والأندلسيين، إلا أنها تبقى سمة غالبية توضح الفرق بين طبيعة الفريقين كما أسلفنا.

الهوامش:

1- ابن منظور: لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير، وأحمد حسب الله، وهاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ج21، مادة (ز.هـ.ر)، ص80.

2- نفس المصدر، ص 81.

3- أبو هلال العسكري: جمهرة الأمثال، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج2، ط1، 1988، ص 22.

- 4- انظر: عيسى سلمان درويش المعموري، محاضرة شعر الطبيعة في العصر الأندلسي، كلية العلوم الإسلامية، نظام التعليم الإلكتروني، تاريخ المحاضرة 20-02-2017، جامعة بابل، العراق.
- 5- ابن المعتز: الديوان، تح: محمد بديع شريف، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط1، 1977، ص 344.
- 6- انظر رحمان خليفة بشار، الربيع ودوره في الأدب العباسي، مجلة ديوان العرب الإلكترونية، 13 فبراير 2019. الموقع الإلكتروني: www.diwanalarab.com
- 7- ابن الرومي، الديوان، الجزء الثاني، تح: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 2003، ص 236.
- 8- انظر، لؤي صيهود فواز، الطبيعة الأندلسية وأثرها في الشعر العربي، مجلة كلية التربية الأساسية، العراق، العدد 58، 2009، ص 231، 232.
- 9- شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف، مصر، ط2، (د،ت)، ص 445 .
- 10 - سامي يوسف أبو زيد، الأدب الأندلسي، دار النشر المسيرة، عمان، ط1، 2012 ، ص79.
- 11- مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه ، دار العلم للملايين ، بيروت لبنان ، ط1، 2000، ص293
- 12- عبد الجواد الطيب، كشاجم، مجلة الرسالة، العدد 894، 21 أغسطس، 1950، ص 03.
- 13- كشاجم ، أبو الفتح محمود بن الحسين (ت حوالي 348هـ)، الديوان، دراسة وشرح وتحقيق، النبوي عبد الواحد شعلان، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط1، 1999، ص ، ص40، ص 83، ص 130، ص 153، ص 162، ص 417.
- 14- عوض على الغباري، شعر الطبيعة في الأدب المصري، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، ط1، 1989، ص 33.
- 15- انظر: زينب عبد الكريم حمزة، وصف الطبيعة في الشعر العباسي: لوحات كشاجم نموذجًا، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية، جامعة بابل، العراق، العدد 35، تشرين أول، 2017، ص 854-855.

- 16- كشاجم، الديوان، ص 131.
- 17- المصدر نفسه، ص 286.
- 18- المصدر نفسه، ص 286.
- 19- انظر: زينب عبد الكريم حمزة، مرجع سابق، ص 855.
- 20- كشاجم، ديوانه، ص 237.
- 21- الموسوعة العربية العالمية، ج9، ص539.
- 22- انظر: رأفت محمد سعد استيتي، ألفاظ البيئة الطبيعية في شعر ابن حمديس، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، ص 48.
- 23- انظر: المرجع السابق، ص 69.
- 24- المرجع السابق، ص 70.
- 25- ابن حمديس الصقلي، الديوان، تصحيح وتقديم: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، دت، ص 24.
- 26- انظر: مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، دار العلم للملايين، ط9، 1997، بيروت، لبنان، ص 277.
- 27- ابن حمديس، الديوان، ص 315.
- 28- انظر: مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، ص 278.
- 29- ابن حمديس، الديوان: ص 156.
- 30- المرجع السابق، ص 83.
- 31- انظر: ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد: لسان العرب، ج 6، ص 430.
- 32- ابن حمديس، الديوان: ص 503.
- 33- ابن حمديس، الديوان: ص 150.
- 34- ابن حمديس، الديوان، ص 105.
- 35- انظر: أبو بكر محمد الإشبيلي، عمدة الطبيب، ج1، ص67.
- 36- ابن حمديس، الديوان: ص 78.
- 37- المصدر السابق، ص 176.
- 38- المصدر السابق، ص 102.
- 39- المصدر السابق، ص 345.

- 40- المصدر السابق، ص 102.
- 41- المصدر السابق، ص 199.
- 42- المصدر السابق، ص 345.
- 43- كشاجم، الديوان، ص 225.
- 44- ابن حمديس، الديوان، ص 65.